



منذ فجر الدعوات الإسلامية، والناس فريقان يختصمون، فريقٌ ركِّل الدنيا برجُلِه وطَلَقَهَا طلاقاً بائناً لا رجعة فيه، وطمح ببصره إلى العلياء، واتصل قلبه برب السماء. وفريقٌ جذب إليه الدنيا وجنبَتِه الدنيا، وجعلها أكبر همّه، وبلغ علمه، وربط جباله بحبالها، وعلق بها كما تعلق الحشرات بخيوط العنكبوت؛ {وَمَا يَسْتَوِيَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِيَ الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِّنْ فِي الْقُبُوْرِ} [فاطر: 19-22].

وارتجز علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يوم بناء المسجد:

لَا يَسْتَوِي مِنْ يَعْمَرُ الْمَسَاجِدَ
يَدْأُبُ فِيهِ قَائِمًا وَقَاعِدًا
وَمَنْ يُرَى عَنِ الْغَبَارِ حَائِدًا

وكمال العقل هو التحليق إلى الأعلى، والطواف حول النجوم والكواكب:

شَدَّتِ الْأَرْضَ قَوَاهَا فَالْقَمَرُ *** فِي طَوَافٍ حَوْلَهَا لَا مُسْتَقِرٌ

قال ابن الجوزي: "من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيء".

ولم يأْرِ في عيوب الناس عيّاً *** كنْفَصُ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ".

وَجَلَ الْغَشَاوَةَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى رَائِدُ الدُّعَوَةِ فِي سُورِيَا مَصْطَفِيُ السَّبَاعِي فَقَالَ:

وَهُلْ يَسْتَوِي طِيرَانٌ هَذَا مَحْلِقٌ *** تَرُومُ جَنَاحَاهُ سَمَاءَ مَلَائِكَ

وذاك مُسْفَ حائِمٌ فوقَ جِيفَةَ *** على الأرض تدَنِيه لوطَءَ سَنَابِكَ

لا يستوي الصقر الذي يضرب بجناحيه علواً في السماء، والغراب الراضي بالجيف المنتنة يتلهمها بشراهة وشغف، وهو فرح مسرور، بما يدخل حوفه.

قلتُ للصقر وهو في الجوّ عال *** اهبط الأرض فالهواء جديب
قال لي الصقر في جناحي وعزمي *** وعنان السماء مرعي خصيب

لا يستوي خفقات جناحي البازي، وخفقات جناحي الزنبور:

وللزنبر والبازِي جميـعاً *** لدى الطيران أجـنـحة وخفـقـة
ولـكـنـ بيـنـ ماـ يـصـطـادـ باـزـ *** وـماـ يـصـطـادـ الـزنـبـورـ فـرقـ

الكلب من علماء السوء؛ كالبوطى وأشباهه من أضلهم الله على علم.

وهل أفسد الدين إلا الملوك *** وأخبار سوء ورهبانها
وباعوا النفوس ولم يربحوا *** ولن تغل في البيع أثمانها
لقد رتع القوم في جيفة *** يبين لذى العقل إنتانها

قال أبو حازم - رحمة الله : "إنه والله ما يستوي من غداً أو راح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدمها أمامه، ومن غداً أو راح في عقد الدنيا يعمرها لغيره ويرجع إلى الآخرة لا حظ له فيها ولا نصيب. يا حسرة على أولئك العلماء الذين يتبعون شر المنازل يوم القيمة.

روى ابن ماجه عن أبي أمامة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ((من شر الناس منزلة عند الله يوم القيمة عبد أذهب الله آخرته بدنيا غيره)).

[آل عمران 145]. وشَّتَّان شَّتَّان بَيْنِ إِرَادَةٍ وَلَارَادَةٍ، شَّتَّان بَيْنِ حَيَاةٍ وَحَيَاةٍ، وَشَّتَّان بَيْنِ ثَوَابٍ وَثَوَابٍ.

لا يُستوي من عاش في رحاب دين الله مستغرق الفكر في آيات الله المتلوة والمرئية ينادي ربه، وأكبر همه أن يكون له أثر في دعوة الخلق إلى الله - عز وجل -، وأن يكون له بصمة ظاهرة في جهاد أعدائه وتطهير الأرض من رجسهم ونسمتهم وإفسادهم، ومن يقعد بكل صراطٍ وهو يصد عن سبيل الله ويوعد من آمن، ويبذل كل ما في طاقته ووسعه في سبيل الإفساد والعوج.

فَخُذْ لَكَ زَادِينَ مِنْ سِيرَةِ ** وَمِنْ عَمَلِ صَالِحٍ يُدْخِلُ
وَكُنْ فِي الطَّرِيقِ عَفِيفَ الْخُطَا *** شَرِيفَ السَّمَاعِ كَرِيمَ النَّظَرِ
وَكُنْ رَجُلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ *** يَقُولُونَ مِرَّ وَهَذَا الْأَثْرُ

لا يستوي هؤلاء وأولئك، فاختر لنفسك أي الطريقين تسلك، وكل مُيسّرٌ لما خلق له.

المصدر: رابطة العلماء السوريين

المصادر: